



إبراهيم عليه السلام وكلمات الابتلاء

د. أبو بكر القاضي



المجلس الثالث عشر: النظر في ملكوت السماوات والأرض

abobakrelkady AboBakr Elkady
www.abobakrelkady.net KonnashatElkady

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرًا أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام ٧٤: ٧٥]

فإبراهيم عليه السلام آتاه الله تبارك وتعالى النبوة والرشد، آتاه الله تبارك وتعالى اليقين، وأقام الله تبارك وتعالى به الحجة على أب إبراهيم آزر، وكذلك على قومه . واختلف أهل العلم في مناظرة إبراهيم عليه السلام التي ذكرت في سورة الأنعام: هل كان إبراهيم عليه السلام ناظرا أم كان مُناظرا؟

هل كان ناظرا بمعنى أنه يبحث عن ربه وهو يستدلّ بهذه الأدلة العقلية ويتدرّج بها إلى أن يصل إلى الله تبارك وتعالى، أم أنه كان قد أُوتِيَ النبوة فعلا واليقين والرشد من قبل ذلك وأنه كان يقول هذا مع قومه على سبيل التّنزّل والزامهم بالحجة حين يقول عن الكوكب أو عن القمر أو عن الشمس هذا ربي . وهذا هو الرّاجح الذي رجّحه الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى أنه كان مُناظرا لا كان ناظرا، أي أنه قد أُوتِيَ الرّشد من قبل، أُوتِيَ النبوة من قبل، أُوتِيَ اليقين من قبل .

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

[الأنعام ٧٥]

هذه الآية فيها إشارة إلى أن إيمان النّظر في ملكوت السماوات والأرض يُورث العبد يقينا ورسوخا في سيره إلى الله عزّ وجلّ .

نعم عباد الله فإن الله تبارك وتعالى قال :

**﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾**

[آل عمران ١٩٠-١٩١]

نعم كما ذكرنا هنالك أدلة شرعية، وهنالك أدلة عقلية.

هنالك كتاب مقروء وهو كلام الله، وتفسيره من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنالك كتاب منظور وهو الكون الواسع.

هذا الكون آيات من الله عز وجل، علامات ودلائل على وجوده عز وجل، وعلى ربوبيته تبارك وتعالى وعلى استحقاقه للإلهية أي العبادة.

ولذلك كثر جدا في القرآن الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية: الاستدلال بخالقيته عز وجل أنه هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت تبارك وتعالى الملك، المليك، الأمر، الناهي، المشرع على أنه يستحق العبادة، يستحق الحب، والخوف، والرجاء، والركوع والسجود، والنذر، والذبح، والتحاكم إلى شرعه تبارك وتعالى.

كمال العبادة لأنه عز وجل الإله الحق، ولذلك معنى لا إله إلا الله ليس معناها لا معبود إلا الله فهنالك من يعبد غير الله ولكن كل هؤلاء يعبدون غير الله بباطل

كل معبود يعبد غير الله فعبادته باطلة، وليس إلهًا حقًا، هو إله باطل أمّا الله فهو الإله الحقّ الوحيد الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

النظر في ملكوت السمّوات والأرض يُورث العبد اليقين بأنّ هذا الصّانع الذي صنع هذه الصنعة.

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٨٨]

هذا الصنع المتقن، هذا الإبداع

﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام ١٠١]

هذا الكمال لهذا الخلق يدلّ على كمال الخالق .

هذا الكمال لهذه الصنعة يدلّ على كمال الصانع.

هذا الانتظام العجيب في تدبير هذا الكون وقوانينه وكيف يسير على نظام واحد

يدلّ على كمال التصرف ويدلّ على حكمة هذا الصّانع وحكمة هذا الخالق.

لذلك توحيد الربوبية في الحقيقة ينبني عليه توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة.

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

[الأنعام ٧٥]

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

"صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ:

"مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟"

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجِلسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ،

فَقَالَ: "أَحْسَنْتُمْ وَأَصَبْتُمْ".

وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ:

"النُّجُومُ أَمَانَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَانَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَانَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ"

رواه مسلم.

الشاهد: هو قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان كثيرا ما ينظر إلى السماء.

نعم أريدك أن يكون لك حظ ونصيب يومي من النظر إلى السماء، من النظر بعين الاعتبار، بعين التدبّر، بعين التفكّر.

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لكي تصل (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

كمال الخلق يدلّ على كمال التصرف. هذا الصنع وراءه صانع وهذا الصانع له غاية وحكمة .

لم يخلق السماوات والأرض باطلا.
لم يخلق السماوات والأرض لاعبا.
لم يخلق السماوات والأرض عبثا.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون ١١٢-١١٦]